حول "الثقافة العربية الجديدة" والجيل الصاعد

الدكتور أسعد عبد الرحمن

أي افتراض بأن «الثقافة العربية الجديدة» حقيقة متجسدة فعلا، ناهيك عن دورها في مواجهة اليأس عند الجيل العربي الجديد، أشبه ما يكون بعملية وضع العربة أمام الحصان. ذلك أن افتراضاً كهذا يقوم على اعتبارات، وربما مسلمات، تستحق وتستدعي الفحص والتدقيق بكل ما يطرحه الفحص والتدقيق من أسئلة مشروعة على غرار: هل ثمة ثقافة عامة واحدة في الوطن العربي أم أن هنالك ثقافات؟ وبالتالي، هل ثمة «ثقافة عربية» أم أن هنالك أكثر من «ثقافة» على امتداد رقعة الوطن (أو ربما العالم الواحد المتنوع) العربي؟. وأخيراً: هل أصبحت الثقافة العربية «الجديدة» حقيقة قائمة وملموسة كي يصار، فوراً، الى توظيفها في خدمة المهمات الخاصة بمواجهة اليأس عند الجيل العربي الجديد؟

ودون غوص في تفاصيل نظرية وتاريخية ووقاعية، حول «الثقافة ودورها في المجتمعات» المختلفة (وهذا هو الأساس في اثارة الاسئلة «التشكيكية»، أعلاه)... نكتفي باعلان اتفاقنا مع ماذهب اليه مفكرون عديدون معيّنون هم ــ في رأينا ــ ممثلو «الثقافة العربية الجديدة» التي هي في طريقها الى الانتشار سواء في المدى المتوسط او البعيد. وفي هذا الصدد، نحن نتفق مع اولئك المفكرين في ان الثقافة العامة (بأبعادها المادية والفكرية والروحية الشاملة) ما هي الا جزء عضوي من كل واحد ملتحم تلقائياً بمجمل المعطيات الاقتصادية والسياسية المجتمعية العريضة. كما نتفق معهم ــ بالتالي ــ في أن الثقافة ليست ظاهرة خاصة قائمة بذاتها ومن أجل ذاتها ومنفصلة عمّا حولها من حقائق مادية أو شبه ماذية موضوعية. وعليه، فإن الثقافة العربية السائدة الآن انما هي ثقافة هجينة متخلفة اساساً، قوامها خليط غريب عجيب من «ثقافات» عدة فيها ما هو عشائري بدائي وما هو اقطاعي وما هو رأسمالي وما هو برجوازي صغير وما هو ثوري علمي، تماماً مثلما أن فيها ما هو عربي (سلفي ومعاصر أو حائر ما بينهما) وما هو غير عربي (غربي استعماري وغربي تقدمي أو غير ذلك). وأخيراً: نتفق مع اولئك المفكرين في أن التجزئة الاقليمية القائمة (بفضل تركة الاستعمار او بجهود النظم السياسية العربية الكيانية الاقليمية الحاكمة) علاوة على ظروف التطور التاريخي غير المتكافىء، أدت جميعاً الى حالة قامت معها، وسادت بفعلها، ثقافات عربية راهنة متخلفة، تفتقر الى التطور الثوري المتماثل والمتساوي. هذا، مع التأكيد على أن أحد أكبر «الينابيع» السلبية لتلك الثقافات مصدره الماء الآسن الذي وردها سواء من مستنقعات الاستعمار الغربي او من مستنقعات الطبقات (وبالأحرى الفئات الضيقة) الحاكمة التابعة لذلك الاستعمار او العاجزة عن الانعتاق من دائرة التبعية له.

وهذا كله، يطرح مسألة «الثقافة العربية الجديدة» باعتبارها مهمة نضالية أكثر منها حقيقة قائمة. وهي مهمة يقع عبؤها ــ في تقديرنا ــ على أكتاف «عرب المستقبل» بما يمثلونه من ثقافة مُوَحدة ومُوَحِدة، جديدة وعلمية، غير منفصلة عن الايجابي من التراث وغير مستغربة أو مغتربة، منفتحة على ثقافات العالم وفاعلة

فيها، تقدمية ومستقبلية، ومرتبطة عضوياً بالحلقات الأخرى المكونة للثورة العربية بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ومن هنا، فإن انتشار وسيادة ما اصطلح على تسميته بالثقافة العربية «الجديدة» العامة أمر مشروط بوقوع «الثورة الثقافية» والتي هي جزء عضوي من الثورة العربية الشاملة المأمولة.

وحتى اشعار آخر، لا بد من أن يتشكل «البرنامج المرحلي» للمثقفين الثوريين العرب من بنود أبرزها: (١) امتلاك الثقافة الثورية العلمية والعمل على نشرها وعلى نحو متواكب مع (٢) مواجهة «مجموع» الثقافة العربية الهجينة المتخلفة السائدة وكيل الضربات المتوالية لها فكراً وعملا و(٣) التصدي للغزو الثقافي الامبريالي الغربي والصهيوني المتزايد و(٤) مناهضة وقلب النظم السياسية العربية الموغلة في التخلف والعسف والاضطهاد والدكتاتورية (بل والفردية الشخصانية) التابعة للاستعمار على نحو مباشر أو غير مباشر والموظفة أساساً ــ بوعي أو بدون وعي ــ في خدمة المخططات الهادفة محاربة طموحات الجماهير العربية في الحرية والوحدة والديمقراطية الاجتماعية والسياسية و(٦) حماية المثقفين العرب (والثوريين منهم بالذات) من عمليات الاستقطاب (المادية أساساً) الحادة التي يمارسها الامبرياليون من جهة، والنظم الحاكمة من جهة ثانية، وذلك من أجل شراء أو تركيع أو قمع أو تحييد أو استمالة المثقفين العرب.

وهذا «البرنامج المرحلي» هو ــ في تقديرنا ــ المدخل الطبيعي لبناء الجيل العربي الجديد بعيداً عن كل ظروف اليأس وكافة محاولات التيئيس المحمومة التي ما فتيء يتعرض لها ذلك الجيل. وبهذا، تبقى المسألة ــ في جوهرها ــ مسألة نضالية لا تتجمد عند حدود المناشدة او التبشير.

جامعة الكويت

دار الآداب
مبارك ربيع
رحلة الحب والهدى